الألف كتاب الثاني
٢٥٤

دوستويفسكي

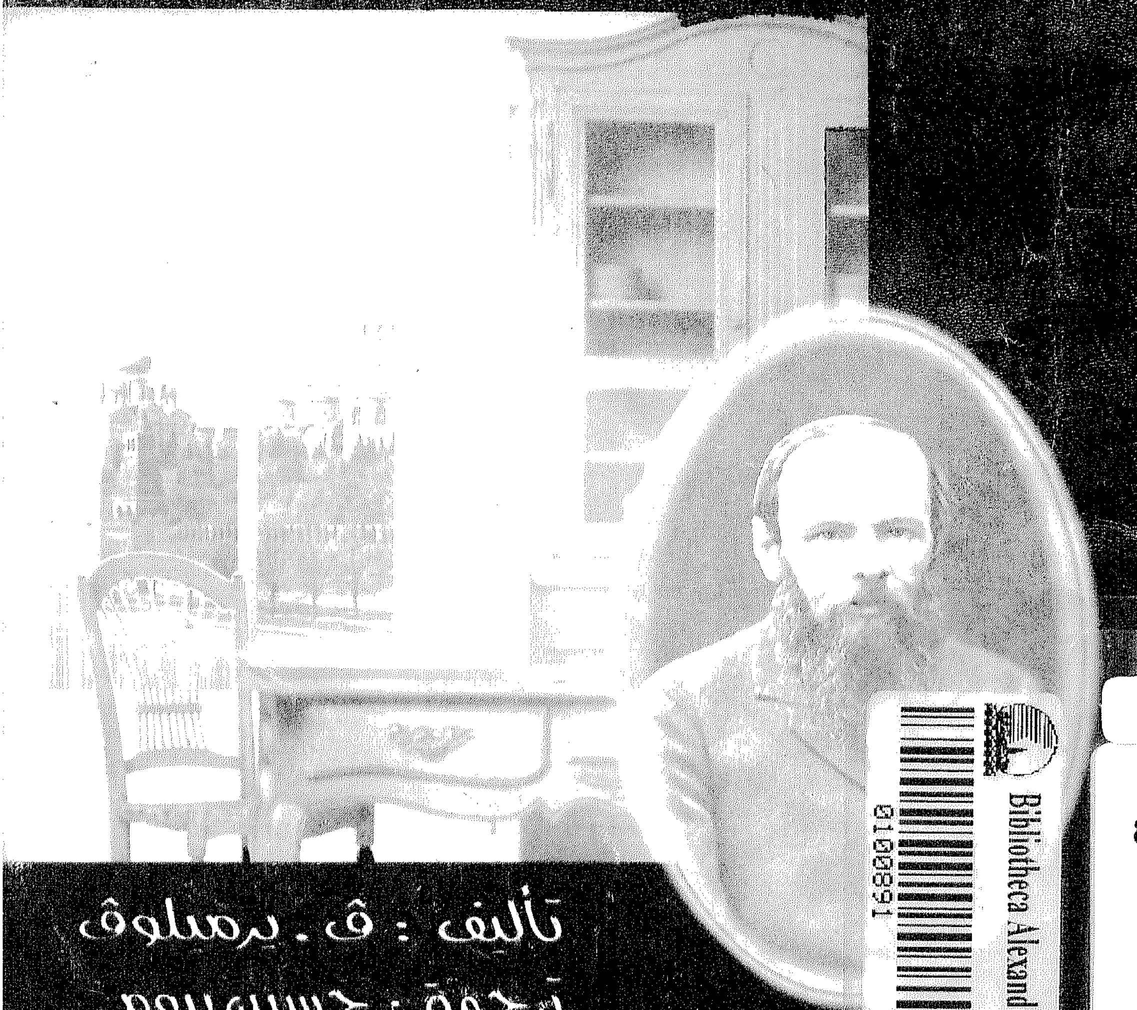

تأليف : ف . يرميلوف
ترجمة : حسين بيومي

Bibliotheca Alexandrina
01008891

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير
أحمد صليحة

سكرتير التحرير
عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى
علياء أبو شادى

دوستويفسكى
وعالمه الروائى

تأليف
ف. بيرميلوف

ترجمة
حسين بيومى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٦

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
دوستويفسكى الشاب	٢١
مؤلفات كتبت فى النصف الأول من الستينات	٧٨
الجريمة والعقاب	١٤٠
الأبله	**١٦٨**
الممسوسون	١٩٥
المراهق	٢٠٣
الاخوة كارامازوف	٢١٧

مقدمة

فيدور دوستويفسكي ـ ذلك الكاتب الروسى الكبير صاحب الموهبة الفنية التى اعتبرها جوركى مساوية لموهبة شكسبير ، أبدى فى كتاباته تعبيرا عن مشاعر العناء اللامحدود للانسانية المذلة والمهانة ، والألم اللامحدود الذى يخلفه ذلك العناء · ومع ذلك ، كان معارضا ، فى الوقت ذاته ، بعنف لأية محاولة للعثور على سبيل لتحرير الانسان من الاذلال والمهانة ·

هذه الازدواجية عذبت دوستويفسكي ، وأصبحت بالنسبة له ولأبطاله مصدرا لابتهاج شديد ، غريب وانتقامى ـ اعتراف كئيب بلا جدوى العناء الانسانى ·

دوستويفسكي نفسه كان مذلا وممتهنا بشدة ، من جراء الأوضاع الاجتماعية الباعثة على الاشمئزاز ، التى تحيط به ، والتى أحالت أبطاله الى شخصيات مشوهة ومضللة · فالطريق الذى سلكه دوستويفسكي فى الحياة والأدب ، أحد الترجمات الحياتية الأشد كآبة لمأساة قمع وتشويه الروح الانسانية بفعل أوضاع اجتماعية معادية للنبوغ والحرية والفن والجمال · ان أعمال دوستويفسكي ـ أكثر الكتاب ذاتية ـ هى دائما اعترافه الشخصى ، بما فيها من فهم كئيب ، وتردد واضطراب محموم ، وخوف لا يهدأ من هلامية وظلمة الحياة ، فأعماله تسجيل لروح عظيمة وان كانت مريضة أعياها عناء الانسان ، روح رجل بلغ أقصى درجات اليأس ، وفقد كل طموحاته ، كل أحلامه وآماله ، روح باتت تعشق الأسى لأنها لم تعد تملك شيئا تحيا من أجله غير الأسى ·

لقد كانت كتابات دوستويفسكي نتاج عصر تحول وأزمات ، حين راحت علاقات ملكية الأقنان الاقطاعية فى روسيا تخلى مكانها للعلاقات الرأسمالية الجديدة · وحيث كانت أسس الحياة البطريركية العتيقة فى روسيا تتمزق اربا ·

فالنظام الاجتماعى الجديد الذى كان يتشكل ، أثار شعورا بالهلع عند بطل دوستويفسكي المهدد بالعجز لكونه مقودا الى طريق مسدود ،

لكنه أبى الرضـــوخ ، فى الوقت ذاته ، للامكانية المغرية بالترقى والقفز فوق الآخرين • فالنظام الجديد أغرى وضلل ضحاياه دائما بقسوة •

« العبودية أم السيادة » هذه العبارة الخلاقة نجدها فى مذكرات عن رواية خطط لها دوستويفسكى تحت عنوان « حياة آثم كبير » • وربما شكلت تلك العبارة الفكرة العــامة لكافة أعماله ، فهى تبين تعذب بطـله بقوله : أنت اما عبد لغيرك أو عبد لنفسك ، اما أن تضطهد الآخرين أو يضطهدك الآخرون • وعادة ما يختار بطل دوستويفسكى البديلين الأخيرين • فالأحرى أن نكون الضحيه وليس الجلاد ! والأفضل أن نكون مضطهدا لا أن نضطهد الآخرين •

لم ير دوستويفسكى بدائل أخرى ، مقرحة « الانزال الى مصــاف البروليتاريا » بدت مفزعة له مثل الرأسمالية ذاتها : فهو يطابق « الانزال الى مصاف البروليتاريا » حينا بالبرجوازية وحينا بالبروليتاريا الرثه • فطريق النضـــال الثورى باعتباره الحل الوحيد للقضية الاجتماعية كان منبوذا من الكاتب •

بدأ دوستويفسكى مساره الأدبى كخلف لجوجول وامتداد لتعاليمه الأكثر فنية وكنصير بيلينسكى • وقد كان بامكان تطوره الروحى والأدبى أن يمضى فى نفس الاتجاه ، رغم التناقضات الخطيرة التى أظهرها فى أعماله المبكرة ، لو لم يتشتت هذا التطور بالمهانة الاجرامية الهمجية التى تعرض لها • فلقد افتقد الى عزلة خارج نطاق المجتمع ، امتدت لعشر ســنوات داخــل جدران سجن أومسك على يد نظــام نيقولا الأول المستبد ، وهو النظام الذى قتل بوشكين وليرمنتوف واضطهد وعذب جوجول • لقد تركت تلك السنوات المميتة تأثيرها النهائى عليه ، على روحه المرضية فى تلقيها وحساسيتها ، فواقع الأمر أن روحه كانت مريضة بمعنى الكلمة ، ففى شبابه كان على شفا الجنون ، والفترة التى قضاها سجينا مع الأشغال الشاقة زادت حالة الصرع عنده سوءا • وعندما عاد الى المجتمع واستأنف حياته الأدبية كان قد أصبح رجلا مختلفا • لم يدم اذن لفترة طويلة ايمانه بتحسين الأوضاع الاجتماعية القائمة من خلال النضال ، وايمانه بقدرة الانسان على اعادة بناء الحياة بقواه الذاتية عبر عقله وقوة ارادته ، فلقد فقد الثقة فى الطبيعة البشرية ذاتها • ومال الى الدين ليستمد منه العون ، غير أن الدين لم يجد مكانا ثابتا فى روحه ، التى كانت عرضة لأن تتمرد وأن تحنق ، والتى اضطرت فى ذلك الحين الى كبت نزعاتهـــا المتمردة والالحادية • لقد كان يصرح بالحقيقة حين كتب فى رسالة الى ن• د• فون فنتسسنا فى فبراير ١٨٥٤ بعد أن ترك الحلقات الثورية : « أنا مازلت

حتى الآن ابن هذا العصر ، ابن عدم الاعتقاد والشك ، وأعرف أنى سأستمر هكذا حتى موتى • أى عذاب مريع يكلفنى ظمئى لليقين ، ذلك الشىء الأقوى فى روحى ، والذى يبعث داخلى محاورات لا تنتهى » •

عند عودته الى سان بطرسبورج بعد عشر سنوات من العزلة التامة ، عزلة بلغت من شدتها أن يصبح من العسير على أى انسان أن يمر بها ، تلقى الصدمة القاسية التى أحدثتها فى نفسه حياة مدينة كبيرة ، تتخذ مسارها على عجل لتصبح مدينة رأسمالية ، بكل تناقضاتها الصارخة ، قروحها واغراءاتها • وفيما بعد ، ولهذا الحشد من الانطباعات ، يعزى النموذج المشوش تماما الذى صوره بوضوح فى رواية **المراهق** ، مضيفا الى مشاعره عن سان بطرسبورج انطباعاته عن رحلته الى خارج البلاد ، حيث شهد مظاهر الرأسمالية الأكثر نموا • كل هذا عزز أكثر فأكثر قناعته بأنه عبر تحمل الألم فقط يستطيع الانسان تطهير نفسه من الأنانية ، من اغراءات القوة الشيطانية للمال ــ وهذه تعالم قادرة فحسب على تضخيم الاضطهاد فى حياة الذل المهان •

بقلبه المثقل بعذابات البشر ، اذا جاز التعبير ، انحنى دوستويفسكى أمامها الى الأرض كما كان سيفعل راسكولينكوف (١) مظهرا بذلك شفقته تجاه سرمديتها ، التى اعتبرها فوق ادراك عقل وقلب الانسان • لقد انتهى دوستويفسكى الى حب المعاناة المسيحى ولننظر كلمات هرتزن الحادة والصادقة : « حب المعاناة يمكن أن يكون قويا جدا • فهو يذرف الدموع ويرسل الكلام ، وبعدئذ يكفكف دموعه ، ولكن جوهر الأمر أنه لا يقدم شيئا » •

لم يخف دوستويفسكى أن تحفظاته الذاتية كانت دخيلة على شخصياته • وكتب رسالة فى عام ١٨٦٧ الى أ• ن• مايكوف (٢) أحد أصدقائه المقربين يقول فيها : « ••••• الأمر الأكثر سوءا أن طبيعتى غير نبيلة وعاطفية الى حد كبير ، فأنا أمضى الى الحد الأقصى لأى مكان وفى كل شىء ، وعلى امتداد عمرى فاننى دائما ما قاربت الحدود ! » وبعد موته

---

(١) أثناء اعتراف راسكولينكوف بجريمته لسونيا فى رواية « الجريمة والعقاب » انحنى وسقط على الأرض وقبل قدميها وقال « لقد جثوت ليس أمامك ، بل أمام كل العناءات الانسانية » ــ (المترجم) •

(٢) مايكوف ، أبوللون نيقولايفتش (١٨٢١ ــ ١٨٩٧) شاعر روسى . خير أعماله هى التى خص بها الطبيعة ــ فى الخمسينات والستينات من القرن التاسع عشر كان من المؤيدين الرجعيين لنظرية الفن الخالص ، وكان معاديا للشعر الديمقراطى الثورى •

قال صديق آخر من أصدقائه وهو س· يانوفسكى بأن « ··· شخصيته كانت تنطوى على ميل للمبالغة ··· » ·

ومن السمات المميزة لدوستويفسكى شكه الرهيب ، فهو بشكل ما أكثر حماسا يقنع نفسه بأنه يعتقد فيما هو شاك به ، مؤمنا بكل النتائج غير المحتملة وحتى المستحيلة التى يستلزمها هذا الاعتقاد · ان هذه الذائبة التى قاربت الجنون تركت بصماتها على كل كتاباته ، على ذلك النحو ، كسمة تفرد بها جعلته مطلق العنان فى التعبير · وهكذا فان كتاباته تشيع لوجهات النظر الطوباوية الرجعية ، بما تتضمنه من أفكار سارت فى مواجهة المجرى الموضوعى للتاريخ · كما أن محاولاته للوقوف ضد التحديث الذى كان يجرى فى عصره ، والذى لم يكن يعنى بالنسبة له غير النصر « السميردياكوفى » (*) الجامح · والجشع والعنف الذى يجتاح الانسان والتحول الى النمط البرجوازى ، جعلته نصيرا متحمسا لـ « العقيدة الأرثوذكسية ولفكرة الشعب المحكوم حكما فرديا مطلقا » · ولقد كانت تلك الأفكار نتاجا للبأس والكآبة التى ألمت به ، والتى اقترنت باعتقاد ساذج فى حصانة وديمومة النظام القيصرى المستبد ، انطلاقا من وهم مستكين بأن القيصر يحتل مقاما فوق السياسة وأنه أب للشعب ، وهذا ما قاده فى النهاية الى دون كيخوتية رجعية الى حد بعيد · وحقا ما قاله دوستويفسكى عن أن الأميرشكين بطل روايته **الأبله** شبيه لدرجة كبيرة بدون كيخوته ، كنموذج يائس أقرب فى روحه منه شخصيا ·

وفى أعمق أعماق روحه كان مدركا تماما للأسلوب الطوباوى الذى يتضمنه المنهج الفكرى الذى يتبناه ، هذا النهج الذى اضطره لأن يغض البصر عما يدور حوله من أمور عديدة ، وأن يتخفف بين الجبن والحين من الالتزام بما يمليه عليه ضميره · ولقد قيل بحق ، ان من الصعب أن يوجد كاتب آخر عانى الكثير من صراع التناقضات داخله مثل دوستويفسكى ·

فى أحد مقالاته كتب ك· ليونتييف الشهير بكتاباته الرجعية بأنه يعتقد أن **يوميات كاتب** عمل ممتاز يتعذر قياسه مع كل أعمال دوستويفسكى الأخرى · وهذا اعتراف ثمين من معسكر العدو ، فحقيقة الأمر أن دوستويفسكى أعلن أفكاره الرجعية فى « يومياته » بينما تكشف أعماله الأدبية وجها آخر مختلفا تماما عن تركيبته ، عن روحه ونظرته للعالم بكل ما فيها من تناقضات · وعادة فان كتاباته غير الروائية تعبر فقط عن بعض الجوانب من نظرته للعالم ، حيث شذبت تناقضاتها الداخلية

(*) نسبة الى سميردياكوف أحد شخصيات رواية « الاخوة كارامازوف » ـ (المترجم) ·

حتى أزيل ما بينها من خلافات • وكما أشار دوبرليوبوف ذات مرة ، وبرهن فى تحليله لأعمال دوستويفسكى . فان وجهه نظره فى القضايا الاجتماعية يجب أن تقوم بمعزل عن شخصياته الأدبيه •

قرب نهاية حياته كان مرحبا بدوستويفسكى فى بلاط القيصر ، ومتفضلا عليه بالرعاية من قبل كبار الدوقات ، وبينهم قيصر المستقبل ألكسندر الثالث • وكان على علاقة طيبة وصلت الى حد المودة مع ك• بوبيدونوستسيف (١) قائد النبلاء الرجعيين ـ المدعى العام للمجمع الكنسى ـ وألد أعداء كل ما هو تقدمى فى الوطن • وهو الرجل الذى أوحى لدوستويفسكى بكتابة « **الاخوة كارامازوف** » آخر رواياته ، ونباهى فى رسالة بعثها اليه بعد قراءته للرواية ، جاء فيها أن صورة الراهب زوسيما قد صورت على النحو الذى اقترحه • لقد كان معسكر التنويريين هو هدف رواية « **الاخوة كارامازوف** » ، باعتباره معسكرا ل « العدميين » (٢) ذلك النبىء المقيت فى عيون الرب • ما لم يتوقعه هذا الرجعى الرئيسى أن الرواية كانت ستحوى شخصيات كريهة مثل فيدور كارامازوف مجسد الفساد الأخلاقى لطبقة ملاك الأرض ، وسميردياكوف عنوان التملق المنافق، كجرثومة وانعكاس لتلك الطبقة • وهذه الأمثلة كافية فى حد ذاتها لادراك أناس على شاكلة ك• ليونتييف الأسباب التى جعلته يفضل كتابات دوستويفسكى العامة على أعماله الابداعية • فالرجعية تخشى الفن لأنها تخاف من الحقيقة ، حيث يتعارض الفن مع الزيف ، فالفن الأصيل لا يمكن أن يكون خادما للرجعية •

ان أعمال دوستويفسكى الأدبية هى ميدان لصراع دائم بين الصدق واللاصدق • فأبطاله ممزقون بالصراع داخل أرواحهم بين التأثير المنوم للجشع البرجوازى من ناحية ، والاشمئزاز من اغراءات المجتمع البرجوازى من ناحية أخرى • هذا النضال الدائب نقل الى مستوى آخر وأظهر كصراع العصور القديمة بين الشيطان والاله من أجل الروح الانسانى • وعولجت هذه الازدواجية كنهاية أبدية جوهرها الصراع المتزن بين « الخير » و « الشر » داخل روح الانسان ، كأمر لا يمكن فهمه بالعقل « الأرضى » المحدود وبأحاسيس البشر • هنا يكمن التأمل المطروح فى وجهات النظر المتباينة التى تقدمها رواية **الاخوة كارامازوف** ، « التأمل الكارامازوفى للتردى بين جهنمين فى وقت واحد » انه الألم المبرح لروح واحدة تحوى

---

(١) بوبيدنوستسيف ، كونستانتين بتروفتش (١٨٢٧ ـ ١٩٠٧) رجل دولة روسى رجعى ، شغل من عام ١٨٨٠ ـ ١٩٠٥ منصب المدعى العام للمجمع الكنسى • له سطوة هائلة على القيصر الكسندر الثالث • نصير متعصب للحكم القيصرى ، وللتعصب الدينى •

(٢) النهلستية ـ العدمية أو الارهاب ـ استعملت الكلمة عند الكتاب الرجعيين فى تلك الفترة للدلالة على المنخرطين فى الحركة الثورية الديمقراطية •

« نموذج مريم العذراء ونموذج سدوم » كتناقض تحويه روح واحدة بين التسليم بالقدر » و « العصيان المسلح » ٠

كان الصراع بين الخير والشر داخل روح الانسان مصدرا للعذاب الشديد عند دوستويفسكى وأبطاله ، وقد لعب الصراع دورا مهما فى أعماله ، لأنه كان مرتبطا بشكل لا ينفصم بالنسق الفكرى الذى تخلل كل كتاباته ، تحلل الأخلاقيات القديمة والعلاقات الاجتماعية فى مجتمع يمر بفترة تغير ، والخوف من كلبية ولا أخلاقيـة البرجوازية وأنانيتهـا البليدة ٠ فدوستويفسكى لم ير شيئا فى المرحلة الانتقالية غير التنازل المروع عن المعايير الأخلاقية ، واصرار « اليمين »على اقتراف الجرائم ، وانتهاك كل المقدسات ٠ وهنا فحسب يكمن التفسير الموضوعى ومعنى المشاكل المتراكمة حول راسكولينكوف ، ديمترى وايفان كارامازوف ، وحشد من شخصيات أخرى ٠

وتبدى ذلك النسق الفكرى المحدد تماما فى أعمال دوستويفسكى فى مظهر قادر على أن يحير القارىء بشدة ، وأوجد شكلا من الخلط يمكن وصفه بأنه « مغازلات اجتماعية » وهكذا ، فان سهام الكاتب كانت تمرق بعيدا عن هدفها ٠ ولكى يدحض دوستويفسكى « العدميين » الذين كان يمقتهم بشدة ، فانه كان يهيىء شخصياته بفعالية واتقان وبشكل قسرى .. باخضاعها لسر يربروكرست ــ لكى تتلاءم مع أفكاره السيكولوجيـة والاجتماعية المتكونة سلفا ، والأدهى من ذلك تخفيه الى أقصى حد فى عباءة الملحدين والمرتدين اللاأخلاقيين المعتقدين بهيمنة المصالح الذاتية وحـدها على سلوك البشر ، المعبرين عن موقفهم هذا بالسخرية والتهكم ، بوضعهم (الملحدين والمرتدين) فى أطر تظهرهم على أنهم ثوريون ٠ وفضلا عن هؤلاء فنهاك المنبوذون اجتماعيا مثـل ستافروجين ، والمستسلمون الى اغراء الاستبدادية الفردية البرجوازية على شاكلة راسكولينكوف ٠

بنماذجه التى صورهـا للتدليل عن أفكار « المعسـكر الثورى » وسلوكيات شخصياته ودوافعهما ، وهى التى كانت بطبيعتها ذات دلالات رجعية الى أبعد حد ، ومعادية للديمقراطية الثورية والاشتراكية ، شوش دوستويفسكى كتاباته بما أسميناه الخلط ذا « المغازلات الاجتماعية » ٠

نبذ دوستويفسكى تماما الرأسمالية بالمعنى المشار اليه ، بالاضافة الى أهوالها وظلمها ، وأنكر ما هو تقدمى فيها وما جلبته لاستبدال أفكار النظام القديم ، وهذا الموقف تجاه النظام الاجتماعى الجديد الذى كان يمضى قدما نحو الاكتمال ، علاوة على الشعور باليأس ، والبحث عن الراحة

فى الدين ، والتشبث اليائس بأساليب الحياة المثالية التى عفا عليها الزمن ، والسكوك والترددات ، لم تكن جميعها كسمات خاصة بدوستويفسكى وحده بل كانت ملامح لقطاعات عريضة من سكان البلاد ، تزيد أو تنقص خلال فترة الانتقال الاجتماعى ، والتى يشير اليها ليبين بقوله :

« التشاؤم ، الاستسلام والاحتكام الى « الروح القدس » هى الايديولوجية التى تنتشر بشكل حتمى فى الفترة التى « يسحق » فيها النظام القديم برمته • فعندما تربت الجماهير فى ظل ذلك النظام القديم انغمست منذ ميلادها فى مبادىء ، وعادات ، وتقاليد ومعتقدات ذلك النظام ، فهى لا ترى ولا تستطيع أن ترى « ما نوع » النظام الجديد المنبثق ، « وما هى » القوى الاجتماعية التى جلبته الى الوجود وب « أى سبيل » ، وما هى القوى الاجتماعية القادرة على جلب الحرية من وسط الكوارث الحادة التى لا تعد ولا تحصى المميزة لفترات التغير الجذرى » •

لقد كان دوستويفسكى نفسه من نبذ أية فرصة لتزايد فهمنا للقوى الاجتماعيه القادرة ــ مثلا ــ على اغاثة عائلة مارميلادوف ، ضحايا النظام الاجتماعى الذين يرثى لهم ، ومن وصف مصيرهم بقوة ودقة كبيرتين فى روايه **الجريمة والعقاب** • ان احتجاجه ضد الجبروت الرأسمالى الجاثم فوق صدر البلاد يشمل الكثير مما هو ضار بالتقدم الاجتماعى الحقيقى ، وان كان فى أعماقه يوجد الكثير مما هو صادق مع الحياة ، وشفقة بلا حدود وتعاطف مع المذلين المهانين • لقد حثه ضميره الاجتماعى على وصف الأخطاء والشرور وعناءات جماهير من سكان البلاد ، وهذه أمور كان كتاب آخرون منتمون لمعسكر « الموالين » يتجنبونها عمدا •

ان كتابات ونشاطات دوستويفسكى أعطته الحق الأخلاقى لأن يقول • « أنا لا أحب ما يجرى فى هذا العالم »وهى صيغة تلخص جوهر كل ما كتب •

روح من الذعر والشجن ، العذاب والكرب الانسانى الذى لا يحد ، الاستياء المدمى من الحياة ، الاستقصاءات والترددات ، المرضية فى علاقات الناس ، العزلة واليأس ، البؤس والقنوط . الفزع من عدم القدرة على التمييز بين الخير والشر ، تحلل الفضيلة والقيم الأخلاقية ، الاذلال المطلق • كل هذه الملامح لكتابات دوستويفسكى تتذمر للسماوات من أن حياة الانسان ليست الا بحرا من الاضطرابات والآلام والمحن •

كتب جوركي في مقالته « عن الأدب » عام ١٩٣٠ مشيرا الى التأثير المتنامي لدوستويفسكي في غرب أوربا : « كنت أفضل لو أن « المثقفين » كانوا متعلقين لا بدوستويفسكي بل ببوشكين ، لأن موهبة بوشكين جبارة وشاملة ، مأمونة ومقوية للأرواح • وان كنت في الوقت ذاته لا أعترض على التأثير الذي تحدثه الموهبة المسممة لدوستويفسكي ، لاقتناعي بتأثيرها المدمر على « التوازن الروحي » للبرجوازية الأوربية الضيقة الأفق » •

لقد كان دوستويفسكي « قاسيا » و « لاذعا » في تعريته لجذور النفس الانسانية وكشف ما بها من أنانية • وامتلأت روحه بالازدراء المرير تجاه النفور المتزمت والمتعالي الذي يبديه الغني التقليدي (المادي المحافظ) المتعنس ولا يتركه حين يتناوله الا وهو مقلق بالضمير • فمعارضته العنيفة لموات الروح المحافظة على القديم ورضائها الذاتي بالخلاص الفردي المزهو ، كفردية منبثقة من عقلية ضيقة ، نشأت من ارتيابه في أي خلاص فردي للانسان ، وتولدت أيضا من أمانته •

اعتقد دوستويفسكي أن القلق المنبعث من ازدواجية وجهة النظر الواحدة يمكن تبريره باظهاره لتشكلات الضمير • ومثالية « الازدواجية » هذه تعني في جوهرها مثالية أي أمر من الأمور ، وهي المثالية التي تعوق انتصار العقل وتميل الى حجب صوته • وتظهر وجهة نظر دوستويفسكي في « الازدواجية » في رسمه بسحر خاص شخصيات متصدعة ، مهملة ، وكريهة مثل سنافروجين وفيرسيلوف •

لم يقبل دوستويفسكي بامكانية الاخلاص لهدف وثبات الشخصية ، لكونهما سمتين متوافقتين مع رهافة الحس والامتثال للضمير • وذلك هو سبب تزيينه لحد كسر « تصدع » و « انشطار » الروح اللذين كتب جوركي عنهما : « معقد هو الحزن والقبح المتولدان عن التصدع والانشطار اللامحدودين لـ « الروح » بفعل الظروف الاجتماعية التي تتواتر يوما بعد آخر في المجتمع البرجوازي ضيق الأفق ، وبفعل الصراع الدنيء المتواصل من أجل « الترقي » وتأمين مكان في الحياة • هذا « التعقد » هو تفسير حقيقة لماذا نرى بين مئات الملايين ، قليلا من الناس البارزين ، كشخصيات واضحة المعالم وأناس يقودهم حماس فريد • باختصار أناس عظماء » •

ونكس هنا كمال قناعة بطل رواية ذكريات من القبو التي توصل اليها وهو في سن الأربعين : « أجل ، انسان القرن التاسع عشر محتم عليه ومضطر أخلاقيا لأن يكون غالب الأحيان مخلوقا ضعيفا ، بينما رجل الشخصية والفعالية هو بالضرورة مضطر أخلاقيا لأن يكون ضيق الأفق » •

« الرجل الفعال » يعنى عند دوستويفسكى رجل الأعمال البرجوازى ، كما صوره فى شخصية لوجين فى روايه الجريمة والعقاب والسيد بايكوف فى رواية الفقراء والأمير فالكوفسكى فى مذلون مهانون ، رجال لهم طموح جامح يجاهدون لكى يحاكوا نابلبون ، أو أخيرا « عدميين » خياليين مثل بطرس فيرخوفنسكى فى رواية الممسوسون الذى يقول عن نفسه انه اذا تخلى عن أن يكون اشتراكيا فان نصبح ببساطة مجرد دجال سياسى •

تبنى دوستويفسكى الفكرة القائلة بأن وضــوح ملامح الشخصية يتوافق مع الظروف التى تحدد صلابتها وذلك هو سبب تصريحه الذى جاء على لسان أليوشا كارامازوف أحد أحب شخصياته الى نفسه ، « انه لغريب فى زمن كزماننــا أن تطلب من الناس أن يكونوا محددين ذوى أهداف واضحة » •

ونحن نعيد القول بأن هذه الأفكار عند دوستويفسكى كانت انعكاسا لهواجس الشر عنده ، وتعبيرا عن حساسيته المفرطة تجاه ســـلوكيات العصر ، الذى كان يمثل فترة تغير ، وكما استشعره هو ، فترة انتقال الى شىء ما جديد ، هلامى ، مظلم وشرير • وقد رأى أن تلك الفترة لها خاصية « الازدواجية » واعتقد أن الانسان الذى يعيش فيها لا يستطيع سوى أن يحمل السمات المميزة للازدواجية •

كتب ليف تولستوى الى ن• ستراخوف (١) حــول عــدم صواب « الموقف الزائف والخـــاطىء تجــاه دوستويفسكى » و « المبالغة فى أهميته •••• بتصعيده الى مكانة نبى وقديس ظل حتى أيامه الأخيرة يخوض صراعا داخله بين الخير والشر • فهو مثير للمشاعر ، وباعث على الاهتمام ، لكن كل ذلك الصراع لا يؤهله لأن يصبح الشخص الكامل الصفات المهيأ لتنوير الأجيال القادمة » • وما وضعه تولستوى هنا نصب عنيه هو الازدواجية المتأرجحة بن الخير والشر والافتقار الى الخط الحاد الفاصل بينهما ، واستساغة الأخطار الشريرة والاشمئزاز منها فى الوقت ذاته – أى تلك الخواص المميزة لمناخ كتابات دوستويفسكى بشكل عام • غير أن تعبير « الاستسلام » عند تولستوى يخص مجال السياسة ولا يتلاءم مع عالم الأدب •

---

(١) ستراخوف ، نيكولاى نيكولاييفتش (١٨٢٨ – ١٨٩٦) ناقد روسى من كتاب الأوتوقراطية وفيلسوف مثالى • ساهم فى مجلات أبوخا وفريميا التى كان يصدرها كل من ف•م ، م•م• دوستويفسكى • وكانت مقالاته موجهة ضد الفلسفة المادية والديمقراطية الثورية ، وفى مواجهة أفكار تشيرنيشفسكى وبيساريف • وهو يعتبر نفسه مناصرا لمثالية هيجل المطلقة • وهو من معارضى نظرية دارون فى التطور •

قال سالتيكوف ـ شيدرين (١) ذات مرة عن دوســـــويفسكى : « هو فى جانب يصيغ شخصيات روائية مفعمة بالحياة والصدق ، ولكنها فى الجانب الآخر دمى غامضة تبدو كأنها فى حلم مطلقة العنان لنزوانها التى نتجاوز كل حــــد . وكأن الأيدى التى صنعتها كانت مرتجفــة من الغضب ··· » · ويتحدث جوركى أيضا عن العبء الثقيل المحمل بشكل قسرى فى أفكار شخصيات دوستويفسكى ، وفى مشاعرها وسلوكياتها التى لم تكن تتلاءم مع طبيعة تركيبتها · ويؤكد جوركى فى هذا الخصوص أن نزعات دوستويفسكى الرجعية أدت الى « تشويه فظيع يمكن أن يغتفر عند شخص آخر عديم القيمة ···· » ·

لقد ألحق دوستويفسكى الضرر بعبقريته فى انحنائه أمام النزعة الدانية الرجعية الزائفة والباطلة ، وخلق أنماطا وشخصيات تفتقر الى السمات المميزة للحقيقة كما هى فى الواقع ·

ذات مرة قال جوجول ان أى تزييف فى معالجة الشخصية يستدعى لديه شعورا بالاشمئزاز ، شبيها بالشعور الذى ينتابه عند النظر الى جيفه أو هيكل عظمى ·

وشعور الاشمئزاز هو الذى دفعه الى حرق مخطوطة الجزء الثانى من روايته النفوس الميتة · فاكراه الذات الذى فرض عليه من قبل القوى الرجعية كان أحد الأسباب الرئيسية لمرضه العقلى ، الذى أودى به الى الانتحار · ولقد حال ذكاؤه دون أية تسوية مع متطلبات الفن ، الى درجة أنه وان كان قادرا على التحول الى الرجعية فى كتاباته العامة ، لم يستطع أن يزيف المعايير الأدبية المميزة للفن الأصيل ·

لقد أعمى التعصب الرجعى أحيـــانا قـــوة الفن الخـــلاقة عند دوستويفســـكى ، ولذا فشـــل فى اضفاء طـابع التكلف والتلفيق على الشخصيات التى استحضرها على هذا النحو · بل والأدهى من ذلك أن

---

(١) سالتيكوف ـ شيدرين ، ميخائيل بيفجرافوفتش (١٨٢٦ ـ ١٨٨٩) كاتب انتقادى روسى كبير وديمقراطى ثورى · نشأ تحت تأثير بيلينسكى · التحق فى الاربعينيات بحلقة بتراشفسكى ، وانعكس تعاطفه الاشتراكى الطوباوى فى كتاباته المبكرة والتى نفى بسببها الى فياتكا (١٨٤٨ ـ ١٨٥٥) · كان أحد المحررين فى « أوتشيستفنى رادسكى » من ١٨٦٨ حتى أغلقت فى ١٨٨٤ · ولعبت كتاباته المناهضة للسلطة دورا مهما فى نمو الحركة الثورية والأدب التقدمى فى روسيا · تتبع التقاليد الفنية عند جوجول وخلق أسلوبا فى الهجاء السياسى ·

نفس السبب جعله ، فى بعض الحالات ، يتخلى عمداً عن سبيل الاخلاص للفن • ويمكن أن يقال ، بحق ، ان قدرة دوستويفسكى الخلاقة كانت الى حد ما مضعفة بسبب ذاتيته •

بحساسيته الاستثنائية وعدم حصانته ، وبازدواجية فكره ومشاعره ، تلك الازدواجية التى تعد جوهر بنائه النفسى أثبت دوستويفسكى بأثره البالغ بمناخ عصره ، وما خلفه فى نفسه من مشاعر أصبحت مهيمنة عليه •

فخلال الأربعينات جذبه تيار الأفكار الداعية الى معاداة الاقطاع ، الأفكار الديمقراطية الممتزجة بمفاهيم الاشتراكية الطوباوية وخاصة اشتراكية فورييه • وهى الأفكار التى نشأت تحت تأثير حلقات بيلينسكى وبتراشيفسكى (١) ، حيث كان الأخير النواة الرئيسية للحركة الثورية فى النصف الثانى من الأربعينيات •

فالاستغلال القاسى للفلاحين من قبل ملاك الأراضى ، مع النمو الناشىء للحركة الفلاحية ، فضلاً عن حدة الصراع الطبقى والضرورة الملحة لالغاء القنانة ، الى جانب نمو الوعى الاجتماعى والفكر الثورى - كل هذا ترك تأثيره القوى على دوستويفسكى الشاب ، الذى نملك قدرة فائقة على تفهم جوهر العصر ، وتنفس هواء ذلك الزمان ، فوجدت تلك الظواهر تعبيرا كاملا عنها فى كتاباته عن تلك الفترة •

لم تستحوذ على دوستويفسكى عاطفة ثورية طاغية كيقين ثابت فى قوة الحركة الثورية ، ولم يتشبث بنسق فكرى ديمقراطى ثورى متماسك ، فديمقراطيته كانت من الطراز الحالم والعاطفى ، كما كانت اشتراكيته ، وكان متأرجحا بين الحادية بيلينسكى ونزعاته هو الشخصية تجاه « الاشتراكية المسيحية » • لقد كان محبا للفقراء ، حالما بتحرير الأقنان ، ومطالبا بالحرية الكاملة للأدب والصحافة ، وطموحات كتلك كانت « جرائم » فى نظر حكومة القيصر ، وفى عام ١٨٤٩ حكم عليه بقضاء عقوبة الأشغال الشاقة •

---

(١) بتراشيفسكى م•ف• (١٨٠١-١٨٦٦) زعيم لحلقة من المفكرين الروسيين التقدميين (١٨٤٥ - ١٨٤٩) تعرف تاريخيا باسمه • كان مناضلا نشطا من اجل التحرر وخاصة تحرير الأقنان • وكانت حلقته تضم جناحين . الجناح الاول ثورى ديمقراطى ويضم بتراشيفسكى نفسه ، والجناح الثانى ليبرالى وينتمى اليه دوستويفسكى • وفى عام ١٨٤٩ اعتقل كل اعضاء الحلقة ونفى بتراشيفسكى الى سيبيريا • وظل معارضا للقيصرية حتى نهاية حياته •

ان استغراقه في عالم الأحلام والتخيلات أخضعه لصدمة لم يشف منها أبدا ، وشكلت طابعا لا يمحى في كل أعماله ، كما يمكن أن نرى في وصفه الوارد في رواية الأبله لمشاعر وأفكار رجل محكوم عليه بالاعدام ٠

في ٢٢ ديسمبر ١٨٤٩ أصدرت حكومة القيصر بوحشية سادية وبمنتهى الهدوء حكما عاجلا باعدام الأعضاء الواحد والعشرين لحلقة بتراسيفسكي ٠ وكان هدف الحكم كسر الارادات التي تولدها مثل هذه الحلقة وسحقها ٠ والبس المحكوم عليهم أكفانهم البيضاء ، وقيدوا معصوبي الأعين الى دعامات تمهيدا لرميهم بالرصاص ، دون قرع الطبول خلال الأرض الجريحة حيث تجرى مراسم تنفيذ الحكم ، وفجأة لاح رسول من القيصر راكضا عبر الساحة يحمل مرسوما باستبدال الأمر القيصري بالاعدام شنقا الى أمر بالأشغال الشاقة والنفى ٠

لقد أبقى على حياة دوستويفسكي ، ولكن العقوبة الجديدة شكلت تهديدا لأحلام وطموحات شبابه وآماله التي ماتت موتا بطيئا خلال الألم المبرح الذى ألم به طوال فترة السجن ٠

كانت الكارثة التي داهمته مفاجئة ووحشية ، ولم تكن جريمته الا قراءته ، فقط ، علانية لرسالة بيلينسكي الى جوجول ٠ وكان هول حياة السجن الطويلة — في الوقت الذى حاز فيه سمعة أدبية وأصبح لديه عدد من محطمات الخلق الفني — ساحقا لدرجة كشفت عدم قدرته على الثبات أمام الصدمة وتبدت له قوة النظام القيصري كشيء أزلي لا يقهر ، وفي جحيم سجنه كان بامكانه أن يصغى لزئير وحوش الرجعية الضارى ، الذى كلما بدا أنها الأكثر « انتصارا » ، استشعر نظام نيقولا الأول على نحو متزايد اقتراب هلاكه المرتقب ٠ ان ما عذب دوستويفسكي ، أكثر من أي شيء آخر ، خلال سنوات سجنه شعوره بوطأة العزلة ، عزلة جماعة صغيرة من المفكرين وسط حشد هائل من مساجين يمقتونهم بشدة ٠ وامتزجت مشاعر الكراهية تلك مع شعور غامض عند دوستويفسكي بأن هنالك هوة تفصل بين جماهير الشعب والمفكرين الذين كانوا يرفعون حينئذ راية الحرية ، وذلك التباين بين الشعب والمناضلين عند دوستويفسكي دليلا قاطعا على أن النضال في سبيل الحرية غير عملي ولا يستند الى الواقع ٠

ومن ثم نشأ عنده اقتناع بأن عامة الشعب تقف في مواجهة الالحاد و « التفكير الحر » الذى يخص الصفوة ، وأن أية محاولة للالتصاق بالناس تقتضي نبذ كل الأفكار « النبيلة » و « غير الشائعة » ٠

ان الهوان الذى أصاب كبرياءه ونال من طبيعته التى تأبى الخضوع ، المتولد من كرب حياة السجن وما تلاها من فترة نفى قضاها فى خدمة عسكرية اجبارية ، جعله يمضى فى الحياة مبقيا على احترامه الذاتى وأمامه سبيلان : اما أن يحافظ على اخلاصه للأفكار التى دفعت به الى السجن ، ويتحمل بفخر الألم المبرح الذى كان يقاسيه ، واما أن يبرر المصير الذى آل اليه كنعمة من الله ، وهو السبيل الذى اختاره دوستويفسكى ٠

وهكذا ثبت أن التذلل والخضوع المسيحيين هما الطريق السهل للتحرر من وخزات الكبرياء المجروحة ، القادرة فى تمزيق الروح اربا ان لم تعثر على مخرج أو حل ٠

أظهر دوستويفسكى فى أعماله ، بمنتهى القوة ، سيكولوجيا الخضوع الذى هو أوفر من الكبرياء ، وأبدى فى صور ائعة كم هناك من غيظ مكبوت ، واستياء متناقض ، وكبرياء وظمأ الى الانتقام قد يكمن محتجبا تحت المظهر الخارجى لمثل هذا الخضوع ! مع ذلك ، لعل الاحتجاج المكبوت له حدوده ، وأنه لا يمكن أن يكون شيئا أكثر من احتجاج مكبوت ٠

كان المناخ العام حول دوستويفسكى ، فى النصف الأول من الخمسينيات ، فى كل من الوطن وأوربا الغربية حيث الثورة محبطة ، شبيها بحالته داخل جدران سجنه ٠ ولكن فى النصف الثانى من الخمسينيات ، لم يكن معزولا فقط داخل السجن عن المد الثورى ، الذى أعقب سقوط نظام نيقولا الأول المستبد ، الذى طال انتظاره ، وانما معزول ، فضلا عن ذلك ، بما تبنى من وجهات نظر جديدة ٠

وعاد الى العاصمة وهى فى قمة وضع ثورى غير قادر على استيعابه بسبب قناعاته بديمومة النظام القيصرى ، ومن ثم ، فان الأعمال التى كتبها خلال نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات تحمل طابع الحياد والزوال ، وفقدت نغمة الاحتجاج التى ميزت كتابات دوستويفسكى الشاب ، وان لم تمح أعمال تلك الفترة بعد ، الأفكار الطوباوية الرجعية التى امتزجت بالنقد الساخط للرأسمالية ، والشفقة الغامرة تجاه المحرومين والتعساء التى ظهرت فى كتاباته التالية ٠

اشتد ايمان دوستويفسكى ، فى استقرار النظام القيصرى الذى لا يتزعزع ، بقدوم موجة رجعية جديدة أعقبت تراجع المد الثورى ٠

هكذا سوف نرى أن كتاباته تلونت جميعها بمختلف أطوار النمو الاجتماعى والسياسى لعصره ، وان كان هناك ملمح ما فى كتاباته لم يفتقد أبدا ، على الرغم من كل الأبنية المصطنعة والتشوهات والمغالطات التى وردت فى كتاباته بتأثير اتجاهاته الرجعية ، هو الصوت الصارخ الثاقب الذى لا يمكن اخماده لبشر معذبين متذمرين فى صخب أن ليس بالمستطاع تحمل الأوضاع الاجتماعية لحياتهم الى أبعد من ذلك !

التعاليم الزائفة عن الخضوع ، والتبرير المنافق لعناءات الانسان ، فاقها أثرا الدمع المتسامح الفريد لطفل معذب ، نبذ الكاتب من أجله ، من خلال شخصية إيفان كرامازوف فكرة « التآلف الدينى » .

على الرغم من رفضنا الحاسم للزيف الرجعى ، واضفاء طابع المثال على المعاناة والازدواجية كملامح للدوستويفسكية تتضمنها أعمال هذا الكاتب الكبير ، فاننا نجله لصدقه الشديد فى تصوير حياة مجتمع قائم على الاستغلال ، معبرا عنه بعاطفة حارة وألم شديد ، فى كتابات متناقضة الى حد كبير ، متمردة حينا وخاضعة حينا ، مذهلة فى قوتها الفنية ، وإن كانت بعيدة أحيانا عن الصدق الفنى والاثارة الفنية ، عن التقصى والعناء .

ان دوستويفسكى يشغل مكانا مشرقا فى صرح الأدب الروسى والعالمى .

دوستويفسكى الشـــاب

حين رأى دوستويفسكى صديق شبابه نكراسوف (*) راقدا على فراش الموت ، وكان ذلك فى عام ١٨٧٧ ، سجل مشاعره فى **يوميات كاتب**، وهى تصف قصة ليلة بيضاء لاتنسى فى مدينة سان بطرسبورج • وهذه الحكاية المعروفة تماما لا أســتطيع الاحجام عن الاستشهاد بهـا كاملة لطبيعتها التى تفيض بالشاعرية ، ولقدرتها على أن تهز من لا يميلون الى المبالغة فى تقديم الاحترام عند التحدث عن شخص ما ، فهى قد كتبت فى حالة الهام مبعثها البهجة الصـادقة المتدفقة داخل انسان عند مقـابلته لصديق عزيز ، حتى ليحس المرء حين يعايشها أثناء القراءة بأنها كانت تخصه بصفة شخصية ، لما تتضمنه من عشق متوهج للبشر •

كتب دوستويفسكى يسترجع ربيع عام ١٨٤٥ :

« هناك أمور غريبة تحدث للناس ، فنادرا ما كان يرى أحدنا الآخر (دوستويفسكى يتحـــدث عن نكراسوف ــ ملاحظة للمؤلف) فقد كان بيننا الكثير من سوء التفاهم ، ولكن حادثة جرت فى حياتنا ، لم أستطع نسيانها أبدا لظروفها ، وهى مقابلتنا الأولى • وكما أتذكر فقد قصـدت

(*) نكراسوف ، نيكولا. الكسييفتش (١٨٢١ ــ ١٨٧٧) شاعر روسى عظيم وديمقراطى ثورى فى اربعينيات القرن التاسع عشر أصبح صديقا مقربا لبيلينسكى ، الذى كان له تأثير فكرى كبير فى تكوينه ، وفى عام ١٨٤٧ ترأس تحرير مجلة سوفريمنيك واقنع الشخصيات الادبية الكبيرة بالمساهمة فيها • وفى الخمسينيات بدأ تشيرنيشفسكى ودبروليوبوف بالكتابة فيها ، حيث اصبحت ساحة نضال للديمقراطيين الثوريين • وهو كشاعر لحركة الفلاحين الثوريين عبر بفنه القوى عن الأقنان واستغلال الاقطاعيين البالغ العنف لهم • وكتب عن العمال وبصفة خاصة القادمين حديثا من الريف • وفى كتاباته الهجائية صور انماطا من أعداء الشعب ــ النبلاء الليبراليين ، مالكى الأقنان ملاك الأراضى والراسماليين الجشعين • وشعر نكراسوف مفعم بالوطنية الثورية وحب الشعب والايمان بقوته ، كما ان له روابط وثيقة بالشعر الشعبى • وقدره لينين تقديرا عاليا واوضح انه ينتمى الى الديمقراطيين الثوريين رغم الترددات التى ظهرت فى كتاباته • ولعب تراث نكراسوف دورا عظيما فى نمو الادب الروسى التقدمى ، وفى تشكيل الأسلوب الواقعى فى الأدب السوفيتى •

نكراسوف (١) فى زيارة عابرة منذ وقت قريب ، وأخبرنى فى بداية لقائنا ، وهو مريض ومنهك بأنه تذكر تلك الأيام الخوالى . كان ما يتحدث عنه قد مضى عليه ثلاثون عاما ، وكان ما تذكره شيئا مفعما بروح الشباب، وبالنقاء والطيبة ، ظل باقيا الى الأبد فى قلوب من عاشوا تجربته . كان عمرى فوق سن العشرين بقليل ، وكنت أعيش آنذاك فى مدينة سان بطرسبورج بعد استقالتى من سلاح المهندسين بسنة ، ولم تكن لدى أسباب محددة لتلك الاستقالة ، وان كنت محملا بطموحات غامضة ليست لها حدود . وكان هذا فى مايو ١٨٤٥ ، وكنت قد بدأت فى أوائل العام أثناء الشتاء فى كتابة الفقراء قصتى الأولى ، وقبلها لم أكن قد كتبت شيئا البته . وبعد انتهائى من كتابة تلك القصة لم أدر ماذا أفعل بها ومن هو الشخص الذى يمكن أن أقدمها اليه . ولم يكن لدى أية صداقات مع رجال الأدب باستثناء د. ف. جريجوروفتش (٢) الذى لم يكن قد كتب بدوره شيئا حتى ذلك الحين اذا استثنينا مقالته القصيرة « عازفو الأرغن المتسولون فى سان بطرسبرج » لأحد ناشرى التقويمات . وان لم أكن قد نسيت فقد كان على وشك الرحيل الى ضيعته لقضاء الصيف . غير أنه فى ذلك الوقت كان يقيم فى شقة نكراسوف . وحين جاء عندى فى زيارة خاطفة قال : « أحضر مخطوطتك ـ لم يكن قد قرأها حتى ذلك الحين ـ فنكراسوف يستعد لنشر قائمة بالكتب التى سيصدرها فى العام القادم ، وسوف أطلعه عليها » . وأحضرت مخطوطتى . ورأيت نكراسوف وتصافحنا ولم يدم اللقاء الا دقيقة ، فقد شعرت بالارتباك حين تذكرت أننى قدمت اليه ومعى قصتى ، وسرعان ما انصرفت بعد أن جاهدت أن أتوجه اليه بكلمة . وكان احتمال النجاح عندى ضئيلا وكنت متخوفا من «حزب» أوتشيستفنى زابسكى (*) كما اعتاد الناس أن يسموها فى تلك الأيام . كنت ما أزال اقرأ بيلينسكى باعجاب منذ عدة سنوات ، وبدا لى موحيا بالرهبة وباعثا على الفزع ، وكنت أؤكد لنفسى أحيانا أنه « سيسخر من فقرائى ! » ـ غير أن ذلك كان لأحيان فقط . فقد كتبت القصة بحماس عاطفى مصحوب غالبا بالدموع . « هل يمكن أن يكون كل ما كتبت ، كل تلك

---

(١) استؤنفت العلاقة بين دوستويفسكى ونكراسوف فى الفترة التى نشرت فيها رواية المراهق فى مجلة اوتشيستفنى زابسكى عام ١٨٧٥ وهى المجلة التى كان يصدرها نكراسوف وسالتيكوف شيدرين .

(٢) استعاد جريجوروفتش المشاعر التى تولدت لديه هو ونكراسوف عند قراءة الفقراء ، وفى اخر صفحات الرواية التى تصف عزم ديفوشكين على الرحيل مع فاريذكا ، لم أتمالك نفسى طويلا وبدأت فى النحيب ، والقيت نظرة على نكراسوف فوجدت الدموع تنساب فوق وجهه » .

(*) المذكرات الوطنية ـ مجلة تعنى بالأدب والسياسة . صدرت ١٨٢٠ واغلقتها الرقابة عام ١٨٨٤ ساهم بيلينسكى ونكراسوف فى تحريرها .

الأوقات التى قضيتها والقلم فى يدى منكبا على الرواية ، كل تلك الساعات كذبا ، سرابا ، عاطفة زائفة ؟ » ــ غير أن ذلك التساؤل كان بطبيعة الحال وليد اللحظة التى كنت مستغرقا فيها ، وسرعان ما عاودتنى الشكوك ٠

فى مســاء نفس اليوم الذى دفعت فيه بمخطوطتى الى نكراسوف قصدت مكانا نائيا لزيارة صديق قديم ٠ وطوال الليل قرأنا وتحدثنا عن رواية النفوس الميتة الى أى وقت ــ لم أعد أتذكر ٠ وفى تلك الأيام كان من المعتاد حين يتقابل اثنان أو ثلاثة من الشبان أن يبادر أحدهم بقوله « ياسادة ، هل سنقرأ جوجول ؟ » وكان يمتد بهم الجلوس والقراءة ، فى بعض الأوقات ، طوال الليل ٠ فلقد كان كثير من الشباب آنذاك ، كما كنت أراه ، مترعا بشىء ما ومهيأ لشىء ما ٠

وعدت الى منزلى فى الرابعة صباحا فى ليلة من ليالى سان بطرسبورج البيضاء ٠ وكان الضوء كضوء النهار تماما ، والطقس جميلا ودافئا ، وحين دخلت الى شقتى لم أستطع الذهاب الى الفراش ، ففتحت النافذة وجلست أمامها ٠ وفجأة سمعت جرس الباب وكم أدهشنى هذا ، وفى الحـال اندفع نحـوى جريجوروفتش ونكراسوف فى قفزة واحدة وراحا يقبلاننى ، وكلاهما غارق تقريبا فى الدموع ٠

« ففى أول المساء وقبل أن يحضرا الى بوقت طويل تناولا مخطوطتى وراحا يقرآنها ، كأنها قراءة الفحص ٠ « كان باستطاعتنا أن نصدر حكمنا عليها من قراءتنا للصفحات العشر الأولى » هكذا قدرا ٠ الا أنه بعد قراءة عشر صفحات ، قررا أن يقرآ عشر صفحات أخرى ، وعليه وبلا انقطاع جلسا طوال الليل يقرآن بصوت عال حتى الصباح ويتناوبان القراءة كلما لحق التعب بأحدهما ٠ « لقد كان نكراسوف يقرأ تلك الفقرات عن موت الطالب » ــ حكى لى جريجوروفتش عن ذلك فيما بعد عنــدما أصبحنا بمفردنا ــ « وفجأة لاحظت أن صوته ، عند ذلك الموضع الذى يركض فيه الأب خلف تابوت ابنه الميت ، بدأ يتلعثم مرة ثم مرة ثانية وبعدئذ فقد السيطرة على نفسه ، وخبط المخطوطة براحة يده صائحا « الوغد » وهو يقصدك أنت ومضى الليل على هذا النحو » ٠

وبعد أن فرغا من قراءة الرواية ــ تشغل ١١٢ صفحة ــ اتفقا على زيارتى فى الحال : وماذا لو كان نائما ! ــ سوف نوقظه ٠ فالأمر أهم من

النوم ! ، وفيما بعد وعندما تعرفت بدرجة أكبر الى مزاج نكراسوف ، صرت أتعجب دوما من تلك الواقعة ، فهو متحفظ ومرتاب أغلب الوقت ، حذر وميال للصمت · ولدى شعور دائم بأن ما بدر عنه في لقائنا الأول كان تعبيرا عن عاطفة عميقة لا يمكن اخفاؤها » ·

« ومكثا عندى نصف ساعة أو اكثر ، رحنا خلالها نتناقش حول الدين وموضوعات عامة كثيرة ، تفهمها كل منا عن الآخر منذ الوهلة الأولى بسرعة وباستحسان · وتحدثنا عن الشعر والصدق و « الظرف الراهن » ومضينا في الحديث عن جوجول - بغير حاجة للنداء الشائع - مع استشهادات من المفتش العام و النفوس الميتة ، وجرى الحديث بصورة رئيسية عن بيلينسكي · « سوف أعطيه روايتك اليوم ، وسوف ترى كم هو انسان ! يا له من انسان ! وحين تربطك به صداقة أدبية سوف نرى أى روح لديه ! » هكذا حدثني نكراسوف بحماس وهو يهز كتفي بكلتا يديه « حسن ، الآن حان معاد النوم ، فنم ! سوف نتركك ، وغدا تأتى الينا ! » ·

« كيف يمكنني النوم بعد تلك الزيارة ! يالها من نشوة ! يا له من نجاح ! وما هو أهم العاطفة التى خصانى بها ، كما أتذكرها الآن بوضوح ·

« انني رجل يمكن أن يحقق النجاح ، ويمكن أن ينال المجد ، ومن الجائز أن يحييه الناس حين يقابلونه ، غير أن كل ذلك أتى راكضا مع دموعهما في الرابعة صباحا ، وجاءا لايقاظى لأن الأمر أهم من النوم ··· آه يا للعجب ! كان هذا ما دار في ذهني فكيف أستطيع النوم !

وفي نفس اليوم حمل نكراسوف المخطوطة الى بيلينسكي ، لقد كان يبجل بيلينسكي وفي ظني أنه أحبه أكثر من حبه لأى انسان آخر في حياته · ولم يكن نكراسوف حتى ذلك الحين قد كتب شيئا له أهمية ما كتبه فيما بعد بوقت قصير ، وبالتحديد بعد ذلك الوقت بسنة واحدة · وعلى قدر معرفتي فان نكراسوف قدم الى سان بطرسبورج وحيدا وهو في السادسة عشرة · وفي الغالب فانه بدأ الكتابة في هذه السن · ومعلوماتي قليلة عن صداقته الأدبية مع بيلينسكي ، ولكن الأخير اكتشفه في مستهل حياته ، وربما ترك تأثيرا قويا على مزاجه الشعرى · وعلى الرغم من حداثة نكراسوف في تلك الأيام وفارق العمر بينهما ، فثمة لحظات مهمة من حياتهما تواصلا فيها ، وكلمات تبادلاها تركت تأثيرها النهائي ، وربطت بين الرجلين بروابط لا تنفصم ·

« ظهر جوجول جديد » هكذا هتف نكراسوف وهو يدخل شقة بيلينسكى ومعه الفقراء — « يبدو أنك نكتشف جوجولات عند كل خطوة »، علق بيلينسكى بقسوة ومع ذلك تناول المخطوطة ، وحين عاد نكراسوف اليه فى المساء فى زيارة خاطفة وجده فى حالة انفعال بالغ وقال : « أحضره، استدعه على وجه السرعة بقدر الامكان » ٠

« وفى حينها (وكان هذا هو بداية اليوم الثالث)أحضرت الى بيلينسكى ٠ وانى لأذكر صدمتى فى بداية لقائه بمظهره ، وبأنفه وجبهته ٠ ولسبب ما فاننى تصورت أن يكون هذا الناقد المهيب الموحى بالرهبة ، شخصا مختلفا تماما ٠ وقابلنى بوقار شديد وتحفظ ، فقلت لنفسى « لا بأس ، هذا ما يجب أن يحدث » ٠

ومع ذلك ، وكما أتذكر لم تكد تمر دقيقة واحدة ، حتى تغيرت الصورة من أساسها ، فلم يعد وقاره ، وقار شخص متميز وناقد عظيم عند استقباله لكاتب ناشىء (*) فى الثانية والعشرين ، بل الأصح أن يقال انه وقار منبعث من تقديره للمشاعر التى يستجمعها فى صمته لكى ينقلها الى بأسرع ما يمكن ٠ وبدأ حديثه بحماس ، وعيناه متقدتان ، مرددا فى نغمة مرتفعة وبصوت عال كعادته عندما يكون فى حالة انفعال شديد :

« ولكن هل تعى ما كتبت ! ، هل تدرك ما كتبت ! قد تكون مستهديا بموهبتك المباشرة كفنان ، ولكن هل تعقل كل هذه الحقيقة المفزعة التى أبرزتها أمام أعيننا ؟ من المستحيل أن تكون قد أدركت ذلك وأنت فى سن العشرين ٠ والآن ، بخصوص هذا الموظف التعيس الذى قدمته ، لم هو غارق فى الخدمة كل هذه المدة الطويلة باستبسال ، ولم تضاءل أمام نفسه الى درجة أنه لم يعد يجرؤ على النظر لنفسه على أنه سيىء الحظ ؟! انه الاذلال ، الذى جلعله ينظر أيضا الى أخف أشكال التذمر كفعل من أفعال التفكير الحر ، فهو للأسف لا يجرؤ حتى على المطالبة بحقه ، وعندما يمنحه انسان كريم ، مدير مصلحته ذو المقام العالى ، المائة روبل ، فان الذهول يسحقه ويكاد يبيده من أن شخصا مثله يمكن أن يكون محل شفقة من « صاحب السعادة » وليس من « صاحب سعادته » كما قال ذلك فى روايتك ! وذلك هو التردى الى الهاوية ! وبخصوص اللحظة التى راح فيها يقبل يد « صاحب سعادته » ، لماذا لم يظهر هذا أية عاطفة حقيقية تجاه الرجل التعيس ؟! انه شىء مرعب ، وباعث على الاشمئزاز ! ان مبالغته

(*) ولد دوستويفسكى بالتحديد فى ٣٠ أكتوبر ١٨٢١ (١١ نوفمبر طبقا للتقويم الحديث) ٠

فى الاعراب عن العرفان بالجميل شىء مهول · اننا أمام موقف مأساوى ! لقد لمست بعمق جوهر الأمر ، وأشرت بضربة قلم واحدة الى ما هو جوهرى · نحن معشر الكتاب الصحفيين والنقاد نفكر مليا بتجرد ، ونحاول شرح مثل تلك الأمور بالكلمات ، ولكنك كفنان أوضحت جوهر الأمر بلمسة واحدة ، بضربة معلم ، بخيال فنان ، لدرجة أن المرء يحس أن ما كتبته يخصه شخصيا ، حتى ان أقل القراء قدرة على استخلاص الحقائق ليتمكن من ادراك كل شىء فى الحال · وهذا هو سحر الفن ! هذا هو الصدق الفنى ! هنا يبرز دور الفنان تجاه الحقيقة ! والحقيقة عندك كفنان بارزة وواضحة ، انها تسعى اليك لأنك موهوب · انك كنز وعليك من ثم أن تكون أمينا على موهبتك ، وعندئذ سوف تصبح كاتبا عظيما » ·

« تلك كلمات بيلينسكى آنئذ ، ولقد كررها فيما بعد أمام أناس آخرين ما زالوا يعيشون بيننا وهم الشهود على صدق تلك الكلمات · وتركت بيلينسكى وأنا فى نشوة · ووقفت عند ناصية منزله أتطلع الى السماء ، وأتأمل النهار المشرق ، وألاحظ العابرين ، وبكيانى كله شعرت أن لحظة سكينة قد تجلت فى حياتى ، نقطة تحول فاصلة · وأدركت أن شيئا ما جديدا تماما قد بدأ ، شىء لم يسبق أن خطر لى حتى فى أكثر أحلامى تفاؤلا (وكنت فى تلك الأيام أعانى أحلاما مروعة) · « هل أنا فى الواقع عظيم الى هذه الدرجة ؟! » كنت أسائل نفسى باهفة وأنا فى نشوة خجلى · ايه · ألست مضحكا ! ولم أفكر بعدها أبدا أننى كنت عظيما ، ولكن الشعور بالعظمة فى حينها كان يغمرنى بشدة · آه ، سوف أختبر كفاءتى لهذا التبجيل · (يالهم من رجال ! يالهم من رجال ! هنا يجد الانسان الرجال ! وسوف أثبت ما نلته من تقدير ! وسوف أسعى لأكون رائعا مثلهم ! وسوف أظل أهلا لثقتهم !) كم أنى طائش ! وماذا اذا تناهت الى بيلينسكى فى نهاية الأمر الأفكار المخجلة والمغثة التى تكمن داخلى ! علاوة على وصف الناس لرجال الأدب بأنهم مغرورون وطموحون · وحقيقة الأمر أن أمثال هؤلاء الرجال هم الجديرون بالوجود فى روسيا · وبرغم كونهم فرادى فهم فقط الذى يمتلكون الحقيقة ، ويمتازون بالصدق والطيبة · تلك الروح الخيرة التى تتغلب دائما وتنتصر على الرذيلة والشر · لسوف ننتصر ! آه كم أنا مشتاق لهم ، وتواق لأن أكون بينهم !

« كنت أتذكر دائما هذه الوقائع ، وأستعيد لحظاتها بمنتهى صفاء الذهن · ولم أستطع فيما بعد نسيانها أبدا ، فقد كانت أكثر اللحظات بهجة فى حياتى كلها ، ولقد صلبت روحى وأنا أقضى فترة الأشغال الشاقة ، فى كل وقت كنت أستعيدها فيه · ومازلت أتذكرها بنشوة لا تنطفىء حتى الآن ·

والآن ، بعد ثلاثين سنة ، وحين كنت جالسا منذ أيام قليلة بجانب فراش نكراسوف وهو مريض ، استرجعت تلك اللحظات وعدت أعيشها من جديد • ولم أذكره بتفاصيلها ، وانما ذكرته فقط بحقيقة أن تلك اللحظات قد عشناها فعلا ، وتبين لى أنه قد تذكرها أيضا ، وأستطيع أن أجزم بذلك • وحين عدت من سيبيريا أطلعنى على قصيدة من ديوانه قائلا : « لقد كتبتها عنك فى ذلك الوقت » • ومع ذلك فقد عشنا معظم حياتينا متباعدين • واستعاد على فراش مرضه ذكرى أصدقائه القريبين منـــا :

اغنياتهم النبوئية أسكتت :
سقطوا ضحايا الخيانة والحقد
فى شرخ الشباب ، وصور وجوههم
ترقبنى بلوم وبخيبة •

بلوم — حقـا ، انها كلمات موجعة • هل ظللنـا (مؤمنين) ؟ هل حافظنا على الاخلاص ؟ دع كل انسان يجيب على التساؤل طبقا لحكمه الخاص ، ولضميره ، لكن اقرءوا تلك الأغنيات عن الألم بأنفسكم • ولنحافظ على شاعرنا الحماسى المحبوب حيا فى قلوبنا ! شاعر ذو عاطفة نحو الألم »••

وثيقة رائعة من ذلك الزمان ، وذكرى ملهمة لاثنين من أعظم أبناء وطننا ، وصفحة من تراث ثمين تطلعنا على جوانب من روح الكاتب ، تتجلى فيها لمحات من شخصيته ، تبدو صغيرة للوهلة الأولى ولكنها ذات مغزى عميق •

يجب ألا يغيب عن بالنا أن تلك الكلمات قد كتبت فى الفترة التى أصبح فيهـا دوستويفســكى مهيأ للتعصب الأعمى ، الذى وجد متنفسا له فى رواية **الممسوسون** وما ادعاه فى حينها عن أن بيلينســكى هو أكثر الظواهر المدمرة فى تاريخ روسيا • أليس واضحا أن دوستويفسكى ، بطرحه أفكارا مثل التى وردت فيما اقتبسناه عنه ، يمحو فى واقع الأمر وصمة العـار التى ألحقها بهذين الرجلين العظيمين ، بتكريسه الثنـاء لنكراسوف المحتضر ، وباصغائه لصوت ضميره ؟ وأية صورة جليلة تلك التى يظهر بها بيلينسكى فى تلك السطور الملهمة ، رغم سيل الافتراءات التى وجهت اليه بلا توقف أثناء حياته وبعد مماته • ان المقتبس الذى أوردناه يوضح أن تلك الحقبة كانت مفعمة بالتألق الشعرى ، وليس ذلك فقط بسبب الروح الشابة لهؤلاء المعنيين بها ، وانما لأن تلك الفترة كانت عصرا للآمال الغامضة والتوقعات ••• ربما لاقتراب نهاية القنانة

وبزوغ شمس الحرية · ان هذا المناخ ، والتأثير الهائل الذى أحدثه جوجو وبيلينسكى لابد أن يؤخذ فى الاعتبار عند النظر الى الظرف التاريخ الخاص الذى كتبت فيه قصة **الفقراء** · ويمكننا أن نلمس بسهولة أ دوستويفسكى كان منخرطا بكامل كيانه مع المناخ العام لتلك الفترة ·

يتحدث دوستويفسكى فى ذكرياته عن تأثير بيلينسكى على المرا الشعرى عند نكراسوف · أليس من الواضح أن كتابات بيلنسكى كا لها تأثيرها على دوستويفسكى الشاب . وأن مؤلف **الفقراء** كان ممتن لبيلينسكى لا لأنه شجع عمله الأول فحسب ، بل بسبب العون الذ تلقاه أيضا من بيلينسكى — بتأثير كتاباته — خلال الفترة التى كان يكتب فيها القصة · ولقد أصر دوبرليوبوف على أن **الفقراء** كتبت تحت تأث جوجول ، وذلك يعنى بالطبع أن دوستويفسكى كان تلميذا ومقتفيا لأ جوجول ، الكاتب العظيم ورائد المدرسة الطبيعية فى الأدب ، ومن أطر بيلينسكى بشدة ، وهذا هو السبب كما يبدو ، فى أن بيلينسكى أصبح بمقياس أكبر معلما لدوستويفسكى ، بل والرجل الذى شكله ككاتب حيث كانت مقالاته منبع الهام لدوستويفسكى الشاب حتى قبل أن يلتقيا

ان مؤلفات الروايات « المتحفظة » الذى استهدف النضال الى آخر مد ضد الأفكار التى كان بيلينسكى أحد فرسانها الأوائل فى روسيا يفسح المجال على صدر صفحات مجلة رجعية للتصريح بأن فترة اتصا المباشر مع اثنين من الثوريين — بيلينسكى ونكراسوف — كانت من أجم لحظات حياته ·

ليس من الملائم أن يتحدث دوستويفسكى بألم عن كلمات نكراسوف « بلوم » حيث يبدو واضحا أنها موجهة له بصفة شخصية · ففى وقت ما كان اسمه ضمن السجناء السياسيين الذين شاركوه نفس المصير بع محاكمة بتراشيفسكى ، تلك المحاكمة التى استوجبت اللوم فى ضم نكراسوف ، وطرحت لديه التساؤل عما اذا كان الشعر يقوم بواجب تجاه الشعب كما يفعل أولئك المساجين ، ومن ثم يشتركان معا ، الرجا والشعر ، فى التضحية من أجل سعادة الجميع ·

وفى ضوء ذلك التصور ، نظر نكراسوف الى دوستويفسكى من خلا عقد الزمان الذى شهد كتابة **الفقراء** والذى حوصر فيه دوستويفسكى واضطهد من قبل حكومة القيصر · ولقد أتى زمن أصبح فيه اسم نكراسوف يمثل موقف اللائم لضمير دوستويفسكى ، فلم تكن صدفة أن يكتب « بلوم » على أنها كلمات موجعة ، وذهب ليسأل نفسه هل أبقينا عل

الاخلاص ؟! الاخلاص للأفكار الشابة والنقية التى كانت مرتبطة ارتباطا لا ينفصم باسم بيلينسكى ·

حاول دوستويفسكى بالطبع أن يمنح نفسه بأنه ظل حتى نهاية حياته « مبقيا على الاخلاص » لأفكاره عن حب الانسان ، وحنوه عليه فى آلامه · وحقيقة فانه بهذا المعنى كان مخلصا لأفكاره ، وان كان هناك قدر كبير من الاضطراب فى نغمة تذكراته ، فضلا عن التساؤل الملح « هل أبقينا على الاخلاص ؟ » وهل ظللنا « مؤمنين ؟ » وفى الاستشهاد بالكلمات الموخزة للضمير « فى لوم » ·

بأى منظور يرى معسكر أمثال بوبيدو نوستسيف وكاتكوف تلك الذكريات ؟ فهند هؤلاء الرجعيين حتى النخاع كان الشيء المهم هو أن يحافظ دوستويفسكى على مكانته المرموقة ككاتب له عقلية استقلالية ، وأن صداقته التى جاءت فى بدء حياته الأدبية مع نكراسوف وبيلينسكى زودته بمكانة كبيرة بين الشباب ، ومن ثم زادت من ثقل وجهات نظره السياسية التى طرحها فى **يوميات كاتب** · ولدينا من الأسباب ما يدعونا الى القول بأن دوستويفسكى ، لم يؤيد ولم يستطع بأى سبيل أن يدعم الملمح الأساسى فى شعر نكراسوف ، وهو الطابع الثورى · فجوهر الحقيقة عن دوستويفسكى تتضمنها الكلمات التى استخدمها فى وصف نكراسوف « شاعر ذو عاطفة نحو الألم » ، غير أن عاطفة نكراسوف فى نهاية الأمر هى شعور بالغيظ الشديد لما يعانيه الناس من آلام · ومن الواضح أن الأصدقاء الرجعيين « الجدد » لدوستويفسكى ، لم يتذوقوا أى شيء مما قرءوه فى ذكرياته ·

لم يكن بمقدور بيلينسكى الا أن يظهر بهجته وفرحه الشديد عند اطلاعه على قصة **الفقراء** التى مثلت لديه امتدادا لمدرسة جوجول ، ودليلا على حيويتها ، واثباتا على أن راية الواقعية والاتجاه الانسانى فى الأدب الروسى كانت فى أيد قوية وموثوق بها ·

فى الوقت الذى ظهرت فيه **الفقراء** ثبت أنها الابن الروحى ل **معطف جوجول** ، وحمل أسلوبها طابع كتاباته ، وان شكلت هى فى حد ذاتها خطوة متميزة الى الأمام · وقصة **المعطف** لجوجول كانت احتجاجا كئيبا وساخطا ضد امتهان الانسان ، وصوتا نهض للدفاع عنه ، وهى فى حد ذاتها تعد مجال فخر دائم لأدبنا · وبرغم البناء الروحى المشوه والمتضائل للشخصية الرئيسية فى تلك القصة ، فانه من الوجهة الانسانية يفوق بكثير من يعلوه مرتبة ، هؤلاء الذين يجعلون منه أضحوكة · ومع أن

ما روى عن حياته الداخلية قليل أو معدوم ، فالواقع أن كل ما نعلمه عن مجرد اهتماماته هو أن مشكلته هي الحصول على معطف جديد • والمؤلف يعبر في قصة عن الغيظ والحزن من الامتهان الذى يلحق بالبشر الى مثل هذه الدرجة •

مقار ديفوشكين أهين هو أيضا بشدة ، اهانه بالغة جعلت بيلينسكى يقول بأنه لم يتجاسر حتى على النظر الى نفسه كانسان تعس • فهو فى سلوكه ونظرته للحياة عموما يبدو نسخة فنية من أكاكى أكاكييفتش بطل جوجول ، والفارق بينهما هو أن آخر الناس فى قصة الفقراء قد أصبح فى حقيقة الأمر أول الناس ، حيث ان هؤلاء الذين يوضعون عند أدنى درجات « المجتمع » هم من الوجهة الروحية أنقى الناس فى ذلك المجتمع •

وللمرة الأولى فى عالم الأدب ، فان الحياة الروحية لشخصية تعسة ، محرومة من كل الحقوق الانسانية قد أضيئت من داخلها ، وللمرة الأولى أيضا صور غنى وجمال ورقة تلك الروح بقوة اقناع واقعية • وكان كل هذا بطبيعة الحال حصيلة التطور الذى حدث على نحو سليم فى الأدب الروسى • ولقد تحدث دوستويفسكى عن هذا حين قال ان الفقراء انبثقت عن « ناظر المحطة » لبوشكين و المعطف لجوجول •

الا أنه هو ذاته قد أعطى دفعة للاتجاهات الواقعية والانسانية عند من سبقوه ، نال بها اهتماما خاصا فى الحال ككاتب متميز يملك شيئا ما جديدا يقوله •

ان الجديد فى قصة الفقراء هو اقترابها من « الانسان قليل الشأن » ليس فقط بتعرية روحه ، التى لا تقود القارىء فقط الى أن يتعاطف معه ، بل تدفعه الى الامتزاج به •

وفى القصتين المذكورتين علمنا كل من بوشكين وجوجول حب « الأخ الأصغر » الأخ الضعيف والمنسى • ومقار ديفوشكين فيه شىء من روح دوستويفسكى ، ليس بالمعنى المجرد ، وهو أن أية شخصية فنية تحوى شيئا من روح المؤلف ، فالشىء الذى أشير اليه هو التقارب الاجتماعى والنفسى العميق • فلقد أحس دوستويفسكى أنه أحد هؤلاء « المساكين » • فحياته ، فى حقيقة الأمر ومنذ طفولته ، مليئة بالعمل الشاق والقلق وبنزوات الكبرياء المجروحة ، والضغوط الساحقة للديون ، لدرجة أنه وقف أحيانا على حافة الاستجداء بكل معنى الكلمة • ودوستويفسكى أول كاتب روسى يتغنى بالحياة فى مدينة كبيرة ويطلع قارئه على عالم « المضطهدين » فى مدينة سان بطرسبورج • وحقيقة فان كتابات مثل الفارس البرونزى

لموشتين ونيفسكى المجيل بلوجول ، رسمت الخطوط العامة لمجمل الظروف المريسه التى سحقت وآبادت حياه الفقراء • غير ان دوستويفسكى استحضر المدينة الى عالم الادب بما تمثله كطابية ، وكفرة اساسيه فمالة معبرة عن النشاط الانسانى •

ويتجلى الموقف الأخـــلاقى لمثـــار ديفوشكين فى حبه لفارينكا دوبر وسيلوفا فالحب واحد من أهم المعايير الآدمية للانسان ، ومن دخل حياة ديفوشكين استحث أجمل ما لديه ، وقوى ظهره ، وخلق ثورة حقيقية فى كيانه •

لقد اعتبر دوستويفسكى الفقراء رواية ، وله كل الحق فى أن يرى ذلك ، ولو أن الرواية الطويلة تختلف عن الرواية القصيرة فى تأكيدها على تكوين ونمو الشخصية •

ان مشـــاعر الحب هى التى جعلت ديفوشـكين قادرا على أن يرفع رأسه ، وأن ينسى شعوره بأنه مهيأ فقط للتمسح بأقدام الآخرين ، وأن الشىء الطيب لا وجود له فى هذه الحياة •

لقد كانت لدى دوستويفسكى موهبـة الوصف اللاذع للمهانة التى تلحق بالبشر ، ونورد هنا مثـــالا هو ما رواه ديفوشكين عن ر... ...ى تنظيف حذائه ، باستخدام ممسحة الأحذية ، عند وصوله الى الم... ...ات صباح « ولكن البواب سنيجيريوف لم يدعنى أفعل ذلك ، فقد كان متخوفا من افساد الفرشاة ، فهى فى نهاية الأمر ، عهدة حكومية ،وهكذا ترين يا حبيبتى ، أن هؤلاء المخلوقات يعدوننى أهون وأحط من ممسحة الأحذية التى أمام عتبة الباب » •

وراح ذلك الانسان المضطهد يؤكد قيمته الانسانية وكرامته ، فلأول مرة فى حياته يتبين أن مصير شخص آخر يتوقف عليه ، بل الأكثر من ذلك ، أنها حياة امرأة لها رقة الملائكة • وأحس أن عنده القدرة على تحقيق شىء ما يختلف عن خضوعه المذل السابق ، أمام أى شخص وان كان لا يزيد شأنا عنه الا القليل ، واكتشف أن بداخله كنزا يفوق اللآلىء ، وهو الحب الأصيل والقدرة على العطاء •

ونورد هنا كلمات بيلينسكى عن مشاعر ديفوشكين تجاه فارينكا « انه لم يحبها من أجل نفسه ، ولكن أحبها لذاتها ، وكانت غاية سعادته أن يقدم كافة التضحيات من أجلها »

وحين كان يبذل كل جهده لجعل فارينكا أكثر سعادة ، فانه كان يحس أن حياته أصبحت أكثر غنى • وهو الذى اعتاد أن ينظر لنفسه على أنها « شىء ما عديم الأهمية ، غير لائق لأى أمر بل حتى فظ ، وحالما فقدت احترامى لنفسى تنكرت لكل ما لدى من فضائل وجدارات ، وتسبب ذلك فى افساد حياتى ، هل تدرين أن كل هذا مصدر بقضاء وقدر ••• » • « أنا أعـــرف كم أنا مدين لك يا عزيزى ، عندما تعرفت عليك ، بدأت أعرف نفسى أكثر وأحبك • وقبل ذلك ، ياملاكى ، كنت وحيدا فى هذا العالم ، حياتى هى حياة رجل منوم أكثر مما هى حياة رجل يحيا ويعيش • وفى تلك الأيام تعود زملائى الأوغاد أن يصفونى بالقماءة ، وأن يظهروا لى ازدراءهم ، حتى اننى فى نهاية الأمر أصبحت أزدرى نفسى • واعتادوا أن يصفونى بالبلادة ، وقد ذهبت الى حد أن صدقتهم • ولكن ما أن ظهرت فى حياتى كطيف فى السماء حتى أضأت بضوئك وجودى المعتم ، وأنرت قلبى وروحى ، روحى التى غمرتها السكينة أخيرا ، وتبينت أنى لست أكثر سوءا من الآخرين ، وربما كنت مفتقرا للروح المهذبة والرقة والتألق، غير أنى كنت انسانا بقلبى وعقلى »

« انسان بقلبى وعقلى » هذه الكلمات ايضاح جديد للايمان بالانسانية فى الأدب الروسى ، فأولئك الرجال ـ كنمـــاذج أدبيـــة ـ السابقون على ديفوشكين ، لم يتم الارتقاء بهم الى تلك القمم فى الاحساس بالكرامة • فأحدهم وهو أكاكى أكاكيفتش بطل المعطف استدعاه الشاعر الانسانى العظيم جوجول كنموذج « للانسان » ، غير أن أكاكى أكاكيفتش بذاته كان معزولا ـ مبعدا عن الامكانات القائمة للأفكار والعواطف ، التى استطاع ديفوشكين أن يكتشفها ويعيها داخل نفسه • هذه الصيغة « انسان بقلبى وعقلى » هى وجه التنــاقض فى الرواية مع مستر بايكوف ومن هم على شاكلته ، هؤلاء الذين يعـدون « ديفوشكينات » هـذا العالم غير الجدير بالحيـاة الانسانية على الاطـلاق • حقيقــة فان البايكوفات غير جديرين بالانتماء للجنس البشرى • وكما يقول ديفوشكين عن مستر بايكوف « أى نوع من الناس هذا ، القادر على ايذاء فتاة يتيمة ؟ انه ليس بانسان ، بل كومة من القمامة ! لها شكل انسان ! وأنا أؤكد ذلك » •

لقد ولد الحب مثل تلك الأفكار عند ديفوشكين • والحب أيضا ، قاده وارتقى به الى الأفكار التى تدور حول الظلم الاجتماعى كما نرى هنا :

« كان هناك الكثير من العربات ، وتساءلت : كيف يمكن للطرق أن تتحملها جميعا ؟ وأية مركبات فاخرة هى بنوافذها المضيئة المبطنة بالمخمل، وبستائرها الحريرية ، وخدمها بملابسهم الخاصـة ذات الكتافات الموشاة بالذهب والسيوف • وقد نظرت لبعضها وهى تمر ، تساءلت عما اذا كانت

السيدات اللاتى بداخلها كونتيسات أو أميرات ! ... وانى أفكر فيك كثيرا وكم يؤلمنى ذلك يا عزيزتى الغالية البائسة ! كيف أمكن أن تكونى عاثرة الحظ هكذا يا فارينكا ؟ يا أعز الأعزاء ، ياملاكى الصغير ، كيف حدث أن صارت أحوالك أسوأ الى هذا الحد من أحوال سائر الناس ، ولديك من الرقة والجمال والتعلم ما يجعلك جديرة بغير ذلك ؟ لماذا ترصدك كل هذا القدر السيىء ؟ لماذا يحتم على الانسان الطيب أن يعيش حياته مهملا ، عاجزا عن تلبيه حاجاته الضرورية ، بينما تأتى السعادة الى الآخرين بلا دعوة ؟ أعرف أننى ينبغى ألا أقول ذلك ، لأن هذا الكلام يشى بطعم التفكير الحر ، ولكنها ، مع ذلك أفكار جميلة . لماذا يبتسم القدر لشخص وهو مازال فى رحم أمه ويكفهر لآخر لأنه ولد يتيما ؟ انها خطيئة بالطبع أن نفكر على هذا النحو ، ولكن الأدهى من ذلك ، أن بعض الآثام تتسلل الى القلب قبل أن يدركها المرء . لماذا لا يكون بامكانك يا عزيزتى أن تستقلى واحدة من تلك العربات ، كما يفعل الجنرالات ، بدلا من لعق الصحاف الصغيرة ، وأنت تبتسمين ابتسامتك العذبة ؟ جدير بك أن ترتدى الحرير وتتحلى بالذهب والفضة بدلا من أن تغرقى فى الفقر . هل تودين أن تكونى شاحبة وعليلة كما أنت الآن ؟ ان هذا شىء سيىء . ان ما توديته هو أن تكونى عروسا نضرة ، حلوة ، بضة ، عذبة وأكون سعيدا وأنا أختلس النظر الى نوافذك المضيئة ، وأراقب ظلك وأراك سعيدة وفرحة ، آه ، كم هو مبهج ما يجب أن يكون يا عصفورى الصغير العزيز » .

لقد كان بيلينسكى محقا تماما حين أطلق على دوستويفسكى لقب « خليفة جوجول » ولكن هذا لا يعنى أنه مجرد استمرار أو تابع أدبى لجوجول فدوستويفسكى ككاتب عنده ما يميزه . وقد أوضح بيلينسكى أن أبطال دوستويفسكى : ديفوشكين، والعجوز بوكروفسكى ، وجوليادكين الأصم وثيقو الصلة بأبطال جوجول : أكاكى أكاكييفتش باشماشكين ، بوبريشنين . وقد لخص بيلينسكى الفارق بين ديفوشكين وباشماشكين بالملاحظة التالية : « قد يظن كثيرون ، وهذا خطأ ، أن الكاتب أراد من خلال شخصية ديفوشكين تصوير كيف أدى مسار حياة رجل الى سحق مواهبه العقلية وقدراته . ان فكرة المؤلف أكثر عمقا وانسانية ، فهو يظهر فى شخصية مقار ألكسيفيتش (ديفوشكين) الأشياء الجميلة والنبيلة والمقدسة التى تكمن فى روح انسانية محدودة الأفق » . وهذا الملمح خطوة للأمام فى تطوير الاتجاه الانسانى عند جوجول ، الذى أعلن سخطه الشديد ازاء واقع الحياة التى تخضع الانسان بوحشية متزايدة ، وتسحقه تحت الأقدام » .

لقد احتضن قلب ديفوشكين كل الآلام الانسانية التى رآها حوله ، ولهذا تصفه فارينكا بطلة القصة بقولها : « يا لك من شخص غريب يا مقار

الكسيفتش ! كم هو عميق احتضان روحك للأشياء ! هذا الشيء الذى سيجعلك أقل الناس سعادة .... ان بعض الناس سيقولون ان لك قلبا حنونا ، ولكنى سأضيف لقولهم أن لك قلبا موغلا فى الحنان ... فاذا ما ظللت تحتوى داخل روحك آلام الآخرين كما تفعل الآن ، وتبدى ازاءها كل هذا التعاطف ، فلن يكون من العجيب أن تكون أقل الناس سعادة فى هذا العالم » .

ان فارينكا كشخصية تمت صياغتها على نفس الطراز .

وهناك خطوة أخرى للأمام تضمنها البناء الداخلى للقصة ، هى أن القارىء لا يقابل شخصية فردية مضطهدة ، بل يجد تصويرا متشابكا لحشد من المنسحقين والمضطهدين ، كما أن حياة بطلى القصة مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياة هذا الحشد من الناس المتساوين فى البؤس والشقاء .

باستحضاره الى دنيا الأدب ، شخصيات عالم كامل من طبقات قاع المدينة ، يؤكد دوستويفسكى ، كما يبدو من العنوان الفعلى للقصة ، أنه لا يصور « فقراء » بعينهم ولكن يصف حياة كل « الفقراء » ، الذين تحاصرهم النكبات المريرة ، والمصائر الفادحة . فالمصير الذى تربص بفارينكا وقريبتها ، بدفعهما الى الشوارع لبيع أجسادهما ، يمكن أن ينال العديد من الفتيات ، وعلى امتداد القصة يلمس المرء الجوع والفقر والأفول الجارف للبايكوفات . والعزلة التامة للكثيرين أمثال فارينكا وديفوشكين .

ان موهبة التعبير ، التى تجلت فى النسيج الواقعى للقصة ، والتصوير النموذجى للمشاهد والشخصيات ، كانت دليلا على النزعات الديمقراطية والانسانية عند دوستويفسكى وهو كاتب شاب .

وتتجلى أمام أعيننا على امتداد القصة ، مصائر العديد من الناس ، المصائر التى تتمحور حول الطبيعة الروحية العظيمة لمقار ديفوشكين . وهذه الحالة مهمة فى بناء القصة ، المكتوبة بأسلوب الرسائل الخاضعة فى اختيارها للمؤلف ، والتى رأى أنها الوسيلة الملائمة لعرض الأحداث والشخصيات الرئيسية ، ومصائر الآخرين كما تعكسها الشخصيتان الرئيسيتان من خلال ذواتهما . ويستتبع هذا أن هاتين الشخصيتين يجب أن يكون بمقدورهما ، وعلى نحو ملائم ، ابراز الوقائع وملامح الشخصيات والمصائر التى تواجهها ، ولقد صيغ كل ذلك فى الحقيقة بدرجة عالية من الثراء المستمد من القدرة على الحب والعاطفة الحانية . ففارينكا تحمل كل رسائلها وصفها لنفسها « انى أعرف كيف أحب ، وأستطيع أن أحب »

والذى يحدث مع ذلك ، أنه ما من انسان يرغب فى تلقى المنحة الثمينة ، منحة الحب ، على الأقل بين أولئك الذين لا يودون الا شراء شبابها وجمالها.

وبنفس الدرجة من القدرة على الحب فان مقار ديفوشكين تستطيع روحه تطوير كل مصائب البشر ، وهنا مثلا يظهر ما أحسه تجاه عجز عائله جورسكوف ، الناجم عن الفقر المدقع ، وهى العائلة التى تجاوره فى نفس المنزل :

« انهم فقراء ، ياالهى ، أى فقر هذا ، لا يوجد ثمة صوت منبعث من حجرتهم حتى لنظن أنه ليس هناك نفس تسكن المكان ، وحتى الأطفال لا يسمع لهم صوت . ولم أرهم أبدا يمرحون او يلعبون ، ان هذا فال سيىء ! حين كنت أمر ببابهم ذات مساء ، وكان المنزل هادئا على غير المعتاد ، سمعت نحيبا وأعقبه همس ثم علا النحيب من جديد ، كان ثمة شخص يبكى بكاء مكتوما ، وبطريقة مثيرة للألم الذى راح يعتصر قلبى .وبقيت الليل بطوله أفكر فيهم ولم أستطع النوم ».

« وحين مات طفل جورشكوف الصغير ، وقفت أخته الطفلة وهى فى السادسة من عمرها قريبة من نعشه ، بادية الشحوب ، بائسة ، ساهمة . وأنا لا أحب ، يا فارينكا ، أن أرى طفلا غارقا فى الشرود ، فهذا على نحو ما ، من الأشياء الداعية للحزن . وعلى الأرض كانت دمية من الخرق البالية ملقاة فى اهمال ، وظلت الطفلة واقفة هناك ، بلا حراك ، واصبعها على شفتيها ، وكأنها منسية تماما . وحينقدمت لها صاحبة المنزل قطعة حلوى تناولتها ، ولكنها لم تأكلها . انه شيء محزن ، أليس كذلك يا فارينكا ؟ » .

لقد كان قلب دوستويفسكى مفتوحا لكل آلام ونكبات العالم ، وكان يفيض بالحنو لعناءات الناس ، ويتفطر من محيطات الأحزان التى يشهدها أمام عينيه ، والتى جعلته أكثر الناس تعاسة . وكان ضميره ممزقا طوال حياته ، بالذكريات التى لا تخمد عن آلام الأطفال ، وظل هكذا حتى آخر لحظات حياته ــ وان بدا كما هيىء للبعض أن الاحتجاج داخل روحه قد انحسر تماما ــ حيث بقيت ذاكرته حية ممثلة فى الصورة الفنية التى تمزق القلب ، الصورة ذات الدلالة البالغة ، عن طفل معذب ، والتى قدمها فى آخر أعماله الاخوة كارامازوف .

ولقد كان دوستويفسكى مقتنعا الى حد كبير ، فى عرضه للتفاصيل النفسية ، التى تطلعنا على الازدهار الروحى والنمو الداخلى لشخصية ديفوشكين . واحدى تلك اللمسات البارعة هو ما كتبه فى احدى رسائله

الى فارينكا : « ان أسلوبى يكاد يتشكل الآن » · وما يجب تذكره هو أن الأمور كانت مختلطة عليه لافتقاره الى أسلوب فى الكتابه ·

وهذه اللمسة لها أهمية كبيرة ، وخاصة مع الشكل المتبع فى كتابه القصة وهو شكل الرسائل ، لأنها تعبر بوافعيه عن نمو شخصية ديفوشكين · ولقد تكررت نفس تلك اللمسة فى السطور الأخيرة للقصه فى الوقت الذى بلغت فيه المأساة قمتها ، حين غادرت فاربنكا العاصمه مع زوجها ومضطهدها — مستر بايكوف — تاركة ديفوشكين وراءها وقاصدة حياة كئيبة وقاسية ، حياة تنتظرها هناك فى السهوب البعيدة ، مخلفة وراءها صديقها الوحيد الى الأبد ، وحيث بقى مع طموحه فى ان يعثر سريعا على صديق يكتب اليه ، فلقد أصبح الآن وحيدا بلا أصدقاء · « ان أسلوبى يكاد يتشكل الآن ··· أى أسلوب ؟ انا لا أكاد أعرف ما أقول وعن أى شئ أكتب ، أنا لست مغرما بالأسلوب وانما أكتب فقط لأداوم على الكتابة ، ولأواصل الكتابة اليك ··· » ·

وتنتهى القصة بصرخة الم مبرح وفريد ونحن نرى بوضوح ديفوشكين محطما لتهاويه من القمة الروحية التى بلغها · وبالطبع فان كلماته عن أسلوبه الذى يتشكل ، يجب فهمها بمعنى ان روحه تقترب اكثر فأكثر من الروح الانسانى ! وبسهم واحد أصبح من نافل القول الحديث عن كل تلك الأشياء ، ولم يعد مهتما الى حد كبير بالاعتناء « بأسلوبه » والاعتناء بنموه الروحى وبأشياء أخرى كثيره ، فقد انتهى كل شئ · فهو لن يرتد فحسب الى عزلته السابقة بكل كدحها المعتاد وذلتها ، بل سيتداعى الى السقوط الكامل ·

نحن هنا بازاء مأساة روحين محبين ، يجد كل منهما الآخر فى الظلمة ، روحان لهما قدرة فائقة على الحب الشامل ، بدا يأويهما عبر جسر مهتز فوق جحيم ، وحين يتهاوى ذلك الجسر بفساد قدر لا يرحم ، فانهما يندفعان بعنف نحو الهلاك ·

ان المؤلف لا يستطيع أن يخفى ابتسامة مريره أمام الطابع العائلى المأساوى للقصة ، والتى يستهلها بنغمة تكاد تكون بسيطة وذات ... ريفى :

« كنت سعيدا للغاية فى الليلة الماضية ، سعاده يستحيل أن تتحقق ! » تلك هى الكلمات الافتتاحية فى أول رسائل ديفوشكين الى فارينكا · وفى الكلمات التالية نتبين سبب سعادته : « اذن فانت قد